الوَرَعُ

مقاماً عرفانياً و موضوعاً شعرياً

أ.م.د. علي مجيد البديري
جامعة البصرة

تتميز كتابة الشعر عند الصوفي العارف بأنها ممارسة روحية لها أبعاد معرفية وجمالية عميقة ، فهو يحاول الاقتراب من موضوعات الوجود . والنفس أبرزها . من خلال عناصر تخييلية ولغة تحتفي بالرمز ، ويسعى . متزوداً بالطاقة الباطنية . إلى إضاءة الحجب التي تمنع ظلماتها النفس من الارتقاء والسمو ، ويحرص الشاعر العرفاني على أن يكرس تجربته الشعرية في فضاء العلاقة مع الخالق تبارك وتعالى ، ومراحل السير إليه، وهو أمرٌ مشروط بتوفر ضرورات الإبداع الأخرى ، من موهبة ، ووعي فني بجماليات الشعر وتقنيات كتابته ، و حينها تتجلى رؤيتان إبداعيتان في ممارسة واحدة.

ولعل من أجلى أمثلة هذا الحضور لهاتين الرؤيتين ما نقرؤه في بعض نماذجه خارج حدود خارطته العربية ، وفي الشعر الفارسي الحديث منه تحديداً ، فهو يرتكز في تجربته الشعرية على مفهوم الورع بوصفه مقاماً من مقامات العرفان والتصوف

يمثل أساس جميع الكمالات المعنوية والمقامات الأخروية ، بل هو شرط في حصول العبد على مقام ما، والموجب لصفاء النفوس، والمرتكز لثبات العبادة ، ذلك أن ترويض النفس وصونها عن الوقوع في الرذائل لا يحصل إلا بالورع عن محارم الله والتقوى الكاملة. فغياب الورع يعني الحرمان الكبير من الكرامات التي وعدها الله لعباده بمقتضى ما ورد عن المعصومين في هذا المقام. (ينظر: الأربعون : ٤٩٤ وما بعدها) ، و من جملة مرجعيات هذا الفهم ما ورد عن أهل البيت (ع) من أحاديث عديدة ، من قبيل الحديث الوارد بإسناد صاحب الكافي عن يزيد بن خليفة قال: ((وعظنا أبو عبد الله (ع) فأمر وزَّهد ثم قال : عليكم بالورع فإنه لا ينال ما عند الله إلا بالورع)) ، و من المعروف لدى العرفانيين تفاوت الناس و اختلاف مستوياتهم في مراعاة حضور الحق سبحانه وتعالى ، و أنَّ أرفع الناس هم أصحاب المقامات الشامخة الذين يشاهدون كيفية العلم الفعلي لله تعالى وفناء الأشياء فيه وحضور الموجودات جميعاً لديه، فهم يراعون محضر الحق سبحانه ، ويمتنعون عن مخالفة ذاته المقدسة.(ينظر: الأربعون : ٥٠٣).

من هنا ينطلق الشاعر العارف موظفاً هذه المعاني في قصائده بشكلٍ يرتكز إلى إحساسٍ فائقٍ بجماليات التعبير الشعري ، نقرأ من نص يحمل عنوان (من ذاك؟):

((من ذاك الذي لم يرَ وجهك في كل زقاق؟ / ولم يسمع صوتك في كل باب ومنزل؟/ وأين ذاك الذي تحدث عن كل شخص عداك أنت؟/ و من ذاك الذي لم يذق خمر وصالك؟))

يرى الشاعر أن حركة السالك طريق الله تعالى يجب أن تستند إلى ضرورة استشعار الفقر إلى الله تعالى بشكلٍ دائم، بل هو (الفقر) في حقيقته ملازم للموجودات جميعاً ، فالكل محتاجٌ لعطاء الحق المقدس جلَّ وعلا ، وليس هناك من

أحد يمتلك غنى حقيقياً في ساحته سبحانه و تعالى، واستشعار الفقر في الذات يقرب العبد من خالقه الغني ، وكلَّما تعلق القلب بالدنيا وانشغل بتعمير الملك فيها كلما كان فقره الحقيقي أشد، وحاجته للمولى أكبر ، وهو فقر روحي ، ومن هنا يكون الأثرياء فقراء في مظهر الأغنياء ، وهم محتاجون في زي و مظهر من لا يحتاج. ويكون غنى الإنسان عن العالمين كبيراً كلما ركل بقدميه التعلق بالدنيا وتوجه إلى الغني المطلق وأدرك أنَّ جميع الملوك والأقوياء والسلاطين يقفون مجردين من ملكهم في ساحة الحق المقدسة ، وهم يستمعون للهاتف السماوي ((يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد))فاطر: ١٥ .

ونقرأ في نص آخر: ((ماذا حدث حتى صارت في الليلة هذي ممرك هنا/ اللهم إلا أن آهتي أنا التعب قد صارت خضر طريقك/ كيف يجتمع بساط مثلك وأنت سليمان وكوخ الفقير/ نعوذ بالله كأن هذا حدث سهواً منك/ والآن وقد أتيت وصفوت مع مثلي/ فقد تحول بحمايتك بساط فقري إلى قصر ملك/ والليل الذي ربا ظلامه من دخان آهاتي/ قد أشرق كالنهار المنير من نور وجهك البدري))

نقف هنا أمام صورة في منتهى الجمال، وقد امتزجت فيها دهشة التساؤل والحيرة مع بهجة الصفاء والإشراق ، حيث يصف الشاعر فرحته بمرور الحبيب بساحة فقره، و ما أحدثه هذا المرور غير المرتقب من تغيير في حياته ، لقد جسد التحول انقلاباً كبيراً في واقع مكتظ بمشاعر الانتظار، وقد تحول : بساط فقري (إلى) قصر ملك ، و ليل الآهات (إلى) نهر مشرق. و يغادر الشاعر مقام الفقر بعد أن استفرغ أحواله، لتدخل دلالة المحبوبة المغيرة في سياق جديد عبر بعدها الرمزي ، هو سياق الشعر العرفاني والتجربة العرفانية ، ولذلك فإن (المرأة المحبوبة) كقيمة دلالية هنا تتخلى عن الدلالة الظاهرة أولاً وعن الإطار التقليدية الذي تنتمي إليه في شعر الغزل

والنسيب، لصالح قيمة دلالية جديدة. و تقف هذه الأبيات عند مدار الكمال الذي يتعلق بحقيقة التوحيد ، و تؤسس للسالك المتطلع إلى الكمال طريق المعرفة الوحيد ، الذي يبدأ بنفي استقلالية الموجودات بذاتها ، فما هي إلا ظل حقيقة وجود الحق تبارك وتعالى ، ومن هنا فإن ((معنى لا إله إلا الله مشاهدة فاعلية وقدرة الحق في الخلق ونفي التعينات الخلقية وإفناء مقام فاعلية الوجودات الظلية وتأثيرها في الحق)). إنَّ معنى أنْ يكون السالك جديراً بفيوضات الحق تعالى ، مشروط بمعرفة الذات وقصورها، ومدى افتقارها لرحمة الله وتسديده ، وهو المعنى الذي يحرص الشاعر العرفاني على طرحه وتجسيده في جلِّ نصوصه التي يكتبها.